المحاضرة الثامنة

الاقتصاد والتعليم في الجزائر 1591-1830م

1- الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني

2- التعليم خلال العهد العثماني.

3- المؤسسات الثقافية.

تعالج المحاضرة التالية الوضعية الاقتصادية والتعليمية في البلد خلال الفترة العثمانية، وتأثير الوضع السياسي إيجابا وسلبا على تطورهما؛ فبالنسبة للتعليم فقد استطاع الكُتّاب والمسجد والزاوية توفير التعليم الأساسي كالقراءة والكتابة حيث ارتكز في تلقينه على نشر الحاجات الدينية للمجتمع، فانتشر التعليم في جميع ربوع الوطن، غير أن أغلب طلبة العلم لم يواصلوا تعليمهم بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تعيشها البلد.

1-الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني:

لقد بنيت مداخيل الاقتصاد الجزائري خلال الفترة الحديثة على عاملين أساسين هما: "العائدات البحرية والجباية"، حتى أن بروتونيير قائد الحصار الفرنسي على الجزائر أكّد في رسالة وجهها إلى السلطات الفرنسية مؤرخة في 24 أفريل 1829م " أن الحصار على الجزائر العاصمة ليس إلا مضيعة للوقت، ذلك أن الشعب الجزائري لا يمارس أي تجارة خارجية".[1]

ويثبت الجدول التالي دور العائدات البحرية في العائدات الجزائرية؛ رغم تراجع الاقتصاد أواخر العهد العثماني 1798-1815م:[2]

الجدول رقم 01: نسبة العائدات البحرية 1798-1815م

السنوات	إجمالي المداخيل	العائدات البحرية	نسبة المداخيل البحرية
1798-1799م	3.370.000 فرنك	*870.000 فرنك*	25.8%
1800-1802م	2.770.000 فرنك	*270.000 فرنك*	9.7%
1804-1810م	2.625.000 فرنك	*125.000 فرنك*	4.8%
1811-1815م	3.125.000 فرنك	*625.000 فرنك*	20%

[1] أرزقي شزيتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص189.

[2] Daniel Panzac, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005, p.131.

ولعلّ ما يمكن ملاحظته في الجدول أن العائدات البحرية قد تراجعت تراجعا رهيبا، حتى بلغت في بعض الأحيان نسبة لا تتجاوز الـ 4,8 بالمائة من إجمالي المساهمة في الاقتصاد العام للبلاد، وهي نسب منخفضة إذا قورنت بعائدات القرن السادس عشر والسابع عشر البحرية.

ففي سنة 1616م تمكن الجزائريون من الاستيلاء على ثلاثة ملايين جنيه من الفرنسيين ثم تمكنوا من أخذ ثمانين سفينة فرنسية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1628-1634م، كان على متنها 1331 شخصا تقدر قيمتهم بـ 4.752.000 باوند[3]، ويحصي بلايفر "أنّ الجزائريين استطاعوا أسر خمسة أو ستة آلاف بريطاني، واستولوا على 350 سفينة في الفترة الممتدة بين سنتي 1674-1681م[4]، في حين تؤكد قائمة نشرها آرثر هاربرت في لندن سنة 1682م، أن "الجزائريين قد استولوا على مائة وثلاثة وخمسين سفينة بريطانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1677-1682م.[5]

وأما فيما يتعلق بالجباية فقد كثرت حتى أثقلت كاهل السكان المحليين، فعمّت الثورات في الشرق والغرب، فما كان العثمانيون يطفؤون ثورة حتى تندلع أخرى، "ومن هذه الضرائب نذكر اللزمة التي كانت تؤخذ مقابل صدّ الهجمات المسيحية على الجزائر، بالإضافة إلى ضريبة الدنوش التي كان يدفعها الباي إلى الداي كلّ ستة أشهر وأما الدنوش الكبرى فتجمع كل ثلاثة سنوات بعد أخذها عن الساكنة المحليّة، وتحصي التسجيلات أن قائد بايلك الغرب كان "يدفع في بعض الأحيان عشرين ألف دورو للداي نقدا، نصفها من الذهب والأحصنة والعبيد السود والحرير الفاسي والتلمساني وعشرون قنطارا من الشمع

[3] Stanly Lane-Poole, op.cit, p234.

[4]Playfair, Scorage…, op.cit, p47.

[5] Adrian Tinniswood, Pirates of Barbary, Corsairs, Conquests, and Captivity in The Seventeen-century Mediterranean, New-York: The Penguin Group, 2010, p151.

والعسل والزبدة والجوز، في حين أن قيمة الدنوش القادمة من الشرق كانت أكثر قيمة خاصة وأنّها تشتمل على منتجات قادمة من تونس كالعطور والألبسة".[6]

ولم تتوقف الضرائب عند هذا الحد فحتى القبائل الكبرى التي كانت تبيع منتجاتها في الأسواق الجزائرية كان عليها دفع ضريبة للسلطات التركية، فمثلا: "أرسلت قبائل جرجرة إلى الداي مبعوثا تفاوضه من أجل السماح لها ببيع منتجاتها المتمثّلة في الزيت والحبوب في كل من أسواق عنابة وقسنطينة، وفعلا وافق الداي أن تدفع هذه القبائل ستمائة ريال بيجو".[7]

وأما الزراعة فقد تميّز البلد بمنتجاته الفلاحية التي صدّرت إلى الكثير من الدول، فمنها: القمح القطن والتبغ والذرة والأرز والخضروات بجميع أنواعها... وأحيطت المدن والأرياف بجميع أنواع أشجار الفاكهة كالتين والزيتون...إلخ؛ وقد كان القمح أكثر المنتوجات الزراعية تصديرا إلى الخارج، ويصف دالام وصوله الجزائر العاصمة سنة 1595م، قائلا: " لقد انبهرنا بالربيع: فالأشجار مكسوة بالخضرة، والأرض عليها الحبوب والقمح والشعير، بالإضافة إلى تفاح وبرتقال صغير لا يزال عالقا على الأشجار".[8]

ويضاف إلى المداخيل السابقة ما كان يدفعه الأوربيون من أجل توقيع السّلام مع الجزائريين، وحماية تجارتهم من التعرض لهجمات الجزائريين، "ففي سنة 1788م جدد الفرنسيون السلم مع الجزائر مقابل 200 ألف دولا سنويا، إضافة إلى هدايا ضخمة تمنح

---

[6] **ينظر:** ابن الزهار، مصدر سابق.

[7] Ouali Hamadache, Le commerce Intérieur de L'Algérie à l'Epoque Ottoman (1519-1830), Ville d'Alger comme exemple, AL HIWAR AL MOUTAWASSITI , Vol.13 (n°2), Sept 2022, p56.

[8] Gerald Maclean, Nabil Matar, Britain and The Islamic World, 1558–1713, New York: Oxford University Press, 2011, p.15.

للسلطات الجزائرية كل عشر سنوات، في حين كلّف السلم فرنسا خمسة ملايين دولار إسباني، في الوقت الذي دفع البريطانيون 280 ألف دولار".[9]

وحتما فإن العائدات الجزائرية لم تنطوي تحت مظلّة الجباية والمداخيل البحرية فقط، بل امتد الجزء الكبير منها ليخضع إلى "سيطرة اليهود الذين تمكنوا من وضع أيديهم على تجارة القمح مع أوربا، كما سيطروا على أغلب التجارة الخارجية حتى لقب المدعو بوشناق بملك الجزائر، نتيجة لتحكمه بالمال الجزائري، كما شكل اليهود أخطبوطا "أحاط بالاقتصاد الجزائري وهذا أمام تفرّج الدايات ومباركتهم، ولعلّ من أبرز هؤلاء التجار الذي ما انفكّ نفوذهم يزداد يوما بعد يوم: بكري وبوشناق نفطالي ويعقوب أبوكيا (ت1756م)، ودافيد دوران وكوهن آرون وبكري دافيد وسليمان كوهين وماروخي زاهوت وأبراهام كوهين وجوزيف كوهين وغيرهم الكثير"[10] مما لا تقدر هذه الصفحات على حمله.

وفي المقابل استطاع التجار الفرنسيون وبمساعدة الغرفة التجارية في مارسيليا من توطين أقدامهم بالجزائر العاصمة والعديد من المدن الساحلية الأخرى، وترجع أولى العلاقات التجارية الفرنسية الجزائرية إلى تاجرين من مارسيليا هما: توماس لينشي وكارلين ريديي، حيث استطاعا سنة 1563م قيادة التجارة مع القبائل الواقعة بالقرب من سواحل عنّابة، ثم أسسوا وكالة تجارية عرفت باسم الباستيون الفرنسي، تكفّلت بصيد المرجان وشراء الحبوب من الساكنة المحلية، غير أن الباستيون لم يبقى على حياده كمؤسسة تجارية بل توسع نشاطه حتى تجرّأت السلطات الفرنسية وقامت بتسلحيه مثلما حدث أوائل القرن السابع عشر. وقد هدم الباستيون مجددا في عهد علي بتشنين بسبب تسليحه، غير

[9] Eugene Schuyler, American Diplomacy and Furtherance of Commerce, New-York: Charles Scribner's Sons, 1895, p.195.

[10] ينظر: Jewish Social Studies, Vol. 14, 1952./ Bloch Issac, Inscriptions Tumulaires, Paris, 1888.

أن الفرنسيين استطاعوا إقناع الباشا سنة 1640م؛ فاستعادوا مراكزهم في القل وعنابة مقابل أن يدفع التجار حوالي 17 ألف باوند.[11]

"فأسسوا الشركات التجارية لأجل التبادل التجاري مع الجزائر، ونذكر ومن هذه الشركات شركة جيمون (1821-1830م)، وشكرة جوزيف باري... وغيرها من الشركات الفرنسية"[12] ، وقد استطاعت هذه الشركات القيام بصفقات جد مهمة مع الطرف الجزائر، ففي "سنة 1750م تمكنت شركة تحمل اسمل ليبيرينغي من تصدير حمولة إلى فرنسا تحتوي الصوف، والقمح، والجلود، ورؤوس الأغنام، والتمور، والكتان، وريش النعام، وغيرها من المواد، وفي السنة الموالية اشترت نفس الشركة من الحكومة الجزائرية في مزاد علني سفينة ذات 80 حمولة، أسرت عن نابولي، وتدعى فيكتوار".[13]

2- التعليم خلال العهد العثماني:

2-1- وضعية التعليم:

يذكر الجنرال الفرنسي فالزي سنة 1834م، بقوله: "إن أغلب العرب يجيدون القراءة والكتابة"[14]، والحق أن التعليم خلال العهد العثماني قد كان منتشرا بشكل واسع في المراحل الأولى، فنجد كما ذكر شاو أن أغلب الآباء كانوا "يوجهون أبناءهم نحو الكتاب بمجرد بلوغهم سنّ السادسة".[15]

---

[11] E. Rouard De Card, Traités de la France Avec les pays De l'Afrique du Nord Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, 1906, p22.

[12] Devoulx Albert, Relevé des principaux français ont résidé à Alger de 1686-1830, Revue africaine, 1871, p378.

[13] Ibid.

[14] Laaredj-Campbell Anne, Changing female literacy practices in Algeria: Empirical study on cultural construction of gender and empowerment, Springer, 2015, p85.

[15] Shaw Thomas, op.cit, p194.

ولم يقتصر التعليم على الأولاد بل كان متاحا أيضا للفتيات اللاتي كن يأتين إلى المساجد والجوامع والكتاتيب "من أجل حفظ القرآن وتعلّم كيفية الصّلاة، ولهذا فغالبا ما كانت النساء تتعلّمن القراءة والكتابة فقط، دون الحاجة إلى مواصلة الدراسة.[16]

وقد أوردت بعض المصادر والرحلات الأوربية التي زار أصحابها الجزائر معلومات هامّة في هذا الموضوع، فيذكر الكاهن الفرنسي بواريه سنة 1785م بما لا يدع مجالا للشّك أنه رأى فتيات في البادية يدرسن في الكتّاب: "لقد كانت دهشتي كبيرة عندما صادفت مدرسة عامة في دوار الباي التابع لقسنطينة، حيث كان يشرف عليها مدرّس أعمى، محاط بحوالي عشرة فتيان وفتيات يعلمهن الكتابة والقراءة"[17]، في حين يؤكد لويس بيربروجر وجود مدارس وكتاتيب قرآنية خاصة بالفتيات، ويقول في هذا الخصوص: "لقد كانت هناك العديد من المدارس التي أنشأت خصيصا للنساء، يكون فيها المدرّس امرأة". وحتى أولئك النساء اللاتي كن لا يرسلن إلى المدارس؛ فقد تم تلقينهن القراءة والكتابة من قبل إخوانهن وآبائهن.[18]كما يخبرنا مارسل إمريت: "أنه يتم بناء مدرسة –كتّاب– بجوار كل مسجد وزاوية وضريح أحد الأولياء الصالحين".[19]

ورغم اهتمام الآباء الجزاريين بتعليم أطفالهم أملا في حفظ القرآن، إلا أن أغلبهم لم يكن في مقدورهم مواصلة الدراسة ذلك أن الهدف العام منها كان تعليم الطفل مبادئ القراءة والكتابة، ولذلك فبمجرّد إنهائه المرحلة الابتدائية حتى "يتم توظيف الطفل مدّة ثلاثة أو أربعة سنوات في وظيفة مؤقتة يتعلّم فيها التجارة أو يلتحق بالجيش أو أي من المهن المتوفرة في البلد، وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال ممن يحتفظون بما تعلّموه، إذا استثنينا أولئك الذين يكملون الدراسة أو من يشتغلون في جباية الضريبة".[20]

---

[16] Laaredj-Campbell Anne,op.cit, p85.

[17] Ibid, p85-86.

[18] Laaredj-Campbell Anne,op.cit, p87.

[19] Ibid, p86.

[20] Shaw Thomas, op.cit, p195.

2-2- العلوم المتداولة في الجزائر:

لقد غلب على مؤلفات علماء الجزائر التصوف والزهد، حيث لا يكاد يخلو مؤلّف من أحد توجهات المذاهب الصوفية، وهكذا فإنّ أهم العلوم التي تداولها الجزائريون قد انحصرت في "الأحاديث الدينية والفقه والأصول والعلوم اللغوية"[21]، وبرز أيضا بعض العلماء المتميّزين في علم التوحيد والعقيدة أمثال الفكون وعبد القادر الراشدي القسنطيني 1700-1800م.

وأما الشعر فقد قلّ بليغه وعوّض في الغالب بالشعر الشعبي الملحون، وبرز في هذه الفئة علماء من أمثال بن خلّوف والناصري ... وغيرهم، فراح أغلب الشعراء يكتبون بداعي قتل الملل والهواية فقل التجديد وكثر التقليد، خاصة وأن الشعر لم يكن يطعم خبزا[22]، وفي المقابل برز الجزائريون في علم الكلام، خاصة مع انتشار العقائد الأشعرية وسط علمائها، ومن أمهر علماء الجزائر في هذا العلم هو الصوفي السنوسي التلمساني "صاحب كتاب شرح أم البراهين".

الحق أن العلوم الطبيعية والتجريبية لم تكن سوى علوما نظرية ترتكز على قراءة أعمال ومؤلفات السابقين دون ابداع أو إعادة استخدام لها في الحياة اليومية، وفي هذا الخصوص ينتقد توماس شاو سوء اهتمام الجزائريين بالرياضيات والطب، قائلا: "لقد التقيت في الجزائر كبير الفلكيين المكلّف بضبط مواعيد الصلوات، حيث لاحظت أنه لا يعرف الكثير عن الفلك والملاحة، كما أنني لم ألتقي الكثير من الأطباء... غير أنّني عندما التقيت طبيب الداي سألني قائلا: هل يعرف المسيحيون "بوقراط"، بما معناه أبو قراط -يقصد أبقراط-، حيث يعتقد مثل باقي الجزائريين أنه أول طبيب عربي عاش قبل ابن سينا".[23]

---

[21] زهية دباب، مرجع سابق، ص179.

[22] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج02، ص243.

[23] Shaw Thomas, op.cit, p195.

ويواصل شاو قوله "أن الفنون والعلوم التجريبية قد بقيت على حالها كما ورثت عن الأجداد منذ قرون، فهي في أوضاع وظروف مزرية، فالعلوم التي تميّزوا فيها سابقا كالفلسفة والرياضيات والفيزياء والطب، هي اليوم تدرّس على نطاق ضيّق فقط"، ويربط شاو سبب عدم رواج هذه العلوم في الأوساط الشعبية "إلى القسوة التركية وانعدام الحرية والأمان بين الجزائريين؛ كما أن الأتراك لا يهتمّون بالتعلّم ودائما ما يسعون لزيادة ثرواتهم من خلال التجارة، وكثيرا ما يتعجبون بشدّة عندما يرون أحد المسيحيين وهو يستمتع بالتعلم والمطالعة، ويعتبرون ذلك مضيعة للوقت والمال"[24]، ويبدو أن التعليم قد ارتبط في الغالب بالعلوم الشرعية وتحفيظ القرآن، وهذه هي العلوم التي كان يراها الأتراك والجزائريون مهمة؛ خاصة وأن هذا النوع من العلوم يساعدهم في أداء صلواتهم ونسكهم وتحسين علاقتهم مع الله، كما يؤكد ويليام دافيس "أن الأتراك متعلّقون جدا بدينهم، ويعترفون بالله، وبمحمد [صلى الله عليه وسلم] شفيعا لخطاياهم"[25]، في حين يذكر بفايفر "أن سيده يوسف خوجة قد تعلّم القرآن وهو طفل صغير على يد مالكه في القسطنطينية"، وفي مدّة قصير استطاع يوسف تعليم بفايفر اللغة التركية والعربية والكثير من العادات والتقاليد الجزائرية والشرقية لأنه رأى في ذلك واجبا يقتضيه الدين الاسلامي[26].

وذهب توماس شاو إلى أنه "وباستثناء دراسة القرآن وحفظه، فإن الجزائريين لا يعرفون الكثير من الكتب العلمية، حيث تقتصر المطالعة عندهم على كبار السّن فقط، وأما المعلومات

---

[24] Ibid, p355.

[25] Davies William, A true relation of the travailes and most miserable captiuitie of William Dauies, barber-surgion of London, vnder the Duke of Florence VVherein is truly set downe the manner of his taking, the long time of his slauierie, and meanes of his deliuerie, after eight yeeres, and ten moneths captiuitie in the gallies. Discouering many manye landes, ilandes, riuers, cities, and townes, of the Christians and infidels, the condition of the people, and the manner of their countrey: with many more strange things, as in the booke is briefely and plainely expressed. By William Dauies, barber-surgion of London, and borne in the citie of Hereford. London, 1614, P13.

[26] سيمون بفايفر، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1998م، ص50.

الجغرافية المتواترة لديهم فأغلبها يأتي مما ورثوه عن السابقين، ولذلك تحتوي أغلاطا كثيرة، وحتى الكتابات التاريخية فهي مجرد مذكرات منقولة عن حضارتهم الإسلامية بالإضافة إلى مزيج من الروايات الخيالية والأسطورية التي تسبق العصر الإسلامي".[27]

ورغم أن كلام شاو يحمل بعضا من التضخيم إلاّ أن فيه الكثير من الصدق، ذلك أن المتأني في استظهار الوضع العام للتعليم خلال الفترة الحديثة، سيقف على أن التعليم كان كارثيا بأتمّ معنى الكلمة، فحتى العلوم الشرعية لم تسلم من ذلك السواد "حيث مزجها أهل الهوى والظلال بالسحر والشعوذة، فرحلة الورتلاني وعمل ابن الفكون " يثبتان ادعاء الكثير من غير أهل العلم العلم والنبوغ، في الوقت الذي لم "يكن هناك الكثير من العلماء في مجال الهندسة والرياضيات والمنطق والطب ... إلخ"، فقد استمر علماء العهد العثماني في استخدام كتب الرياضي الأندلسي القلصادي الذي توفي سنة 1487م، في حين "آمن العامة إيمانا راسخا أن جميع الأمراض قد تحتاج إلى عقار واحد"[28] ، فانتشر الاعتماد على السحر والشعوذة والغيبيات بشكل واسع في أوساط الناس، وفي خضم كل هذه العتمة والسوداوية برز عالم متميز هو ابن حمادوش الذي اختصّ وتميّز في طبّ الأعشاب، حتى أنّ السكان قد استمروا في استخدام خلطاته العشبية حتى خلال الاستعمار الفرنسي، حتى أن كولن وصفه قائلا: "لقد كان آخر طبيب عظيم برع في الطب العربي بالجزائر"[29]، وكل هذه الأوضاع جعلت من "الدايات وحاشيتهم وأعيان وأغنياء الجزائر يقبلون على الأطباء الأوربيين ويثقون فيهم دون غيرهم".[30]

---

[27] Shaw Thomas, op.cit, p355

[28] هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو هابنسترايت 1732، تر. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2007، ص77.

[29] Gabriel Colin, Abderrezzaq El-Jezâïri: Médecin Arabe du XIIe siècle de l'Hégire, Montpellier, 1905, p39.

[30] هابنسترايت، مصدر سابق، ص78.

وفي المقابل فإنّ فئة العلماء ورغم أنّها لم تلقى الاهتمام اللازم من قبل السلطة العثمانية؛ إلا أنّ نفوذها في الأوساط الشعبية الجزائرية كان بالغا، وتناهى إلى درجة التقديس في بعض الأحيان، "فبعد أن ثار سكان مدينة عنابة سنة 1642م ضد السلطة التركية راسل الباشا يوسف الشيخ محمد الساسي البوني يطلب منه أن يتدخل لأجل وقف الثورة، وفعلا نجح الشيخ في إخماد الثورة وإقناع المتمرّدين بوضع السلاح"، وفي حادثة أخرى رفض سكّان جبال كوكو بمنطقة بلاد القبائل تسليم الأسيرة الآنسة دي بورك للسلطات التركية وتحدّوا الداي نفسه سنة 1719م، غير أن مراسلة واحدة من العاصمة إلى شيخ المنطقة ومفتي جيجل جعلت السكان المحليين يسلّمون الأسيرة، وتذكر ماريا مارتين تفاصيل إطلاق سراحها قائلة: "ما إن وصل المفتي والشيخ حتى فرّ ملاّكي إلى وجهة بعيدة خوفا من المرابطيْن".[31]

وأما عن العلوم الطبيعية التي انتشرت في الجزائر العثمانية فيمكن "التأكيد على أنها قليلة جدا، مثل: تاريخ الطب والطّب البديل، ويمكن أن يلاحظ الزائر أن الجزائر تفتقر لأساتذة ومدربين في هذا المجال، ذلك أنه لا يوجد الكثير من الأمراض في هذا البلد، سوى أوبئة إما أن تؤدي إلى الموت أو أنها تستمر لفترات طويلة، كما أن طبيعة المجتمع الجزائري لا تعتقد بفكرة العلاج، وتؤمن بالقضاء والقدر بشكل لا نقاش فيه، في حين يميل آخرون للسحر والشعوذة ... أو زيارة الحمامات الطبيعية أملا في التداوي بها".[32]

ورغم التخلّف الذي شهده الطب في الجزائر إلا أن هذا لم يمنع من وجود العديد من المستشفيات في الجزائر، فقد "بنى حسن آغا (1533-1542م) أول مستشفى سمي باسمه يضم خمسة غرف فقط"[33]، وأحصى دونيس "وجود أربعة وثلاثين مستشفى بالجزائر أواخر

---

[31] DUNCAN Archibald, The Mariner's Chronicle: Being a Collection of the Most Interesting Narratives of Shipwrecks, Fires, Famines, and Other Calamities Incident to a Life of Maritime Enterprise, James cundee, 1805, p13-24.

[32] Shaw Thomas, op.cit, p358.

[33] **ينظر:** Haedo Fray Diego, Topographie et Histoire générale d'Alger, Tr. Mounreaut et Berbrugger, Alger, 1870.

القرن السادس عشر"[34]، كما تخبرنا تسجيلات تعود لسنة 1665م "عن وجود خمسة مستشفيات في الجزائر"[35]، غير أنّ الأب مونري يؤكد سنة 1612م "أن الأتراك لم يمتلكوا أي مستشفى لأنفسهم، ولهذا كانوا يأتون إلى المستشفى الإسباني المخصص للأسرى من أجل التداوي"[36]، وهو المستشفى الوحيد الذي استمرّ وجوده لغاية سنة 1825م رغم إغلاقه سنة 1793م .

إنّ أغلب هذه المستشفيات كانت مخصّصة للأسرى غير أن ذلك لم يمنع من تلقي الجزائريين العلاج فيها، حتى أن السلطة التركية كانت تستعين بأطبائها لأجل العلاج، والحق أن الكثير من هؤلاء الأطباء الذين اشتغلوا في هذه المستشفيات كان يتم اختيارهم بعناية ورويّة، "فبعد انتهاء عقد الطبيب أليكساندرو سان ميلان في الجزائر سنة 1763م طلب منه البقاء لتميّزه سنتين إضافيتين، في حين انهى مدير المستشفى الإسباني بالعاصمة الجزائرية مهام الطبيب أنطونيو فيليكس مورواليس سنة 1778م، واستبدل بالطبيب ثيبريانو كنيادا الذي اشتغل مدة عشر سنوات في مدريد".[37]

وبالإضافة إلى الأطباء الذي قدّموا خدمات جليلة للمستشفيات الأوربية المتواجدة في الجزائر، فهناك الكثير من الأطباء الذين جلبوا كأسرى إلى الجزائر فأغنوا ملاكهم، حيث يذكر أندرهيل قائلا: "لو لم أكن عبدا لجمعت ثروة كبيرة من اشتغالي في الطب، غير أن الأموال كانت دائما ما تذهب إلى سيّدي"[38]، ونذكر من هذه الفئة على سبيل التمثيل لا الحص: الطبيب

---

[34] Rang. S, Denis.F, Fondation de la régence d'Alger, Histoire de Barberousse, Chronique arabe du XVIe siècle sur un manuscrit de la Bibliothèque Royale , avec un appendice et des notes Tome2, p.aris: ,J. Ange éditeur, 1837.

[35] Berbrugger A, "Charte des hôpitaux Chrétiens d'Alger, 1694", R.A, N°08, Alger 1949, p.135.

[36] De Tassy Laugier, Histoire de Royaume d'Alger, Amesterdam: Henri du Sauzet 1837, p203.

[37] Ellen G. Friedman, "Trinitarian Hospitals in Algiers: An Early Example of Health Care for Prisoners of War, Catholic historical review, Vol.66, N°.04, 1980, p.554.

[38] Updike Underhill, The Algerine Captive, or the life and adventures of Doctor Updike Underbill, six years a prisoner among the Algerines, New Hampshire, 1797, p35.

الإيطالي أسانسي الذي اشتغل لفترة طويلة في الجزائر وقدم خدمات جليلة لصالح الداي وكبراء الدولة، بالإضافة إلى الطبيب يوهان من أصل سرديني والطبيب مياري... وغيرهم الكثير".[39]

أوكلت مهنة التوليد للنساء الجزائريات واليهوديات، وذلك لمتطلبات تتعلّق بطبيعة المجتمع الجزائري، فيذكر شوتنبيرغ: "أن مهنة التوليد قد أوكلت للقابلات من النساء اليهوديات والجزائريات دون غيرهنّ، حيث كانت القابلات الجزائريات تشتغلن على توليد النساء التركيات والعربيات، في الوقت الذي تكفلت اليهوديات بتوليد النساء من الطائفة اليهودية والمسيحية، وقد نفى الكاتب ما كان يروج له في الأوساط الشعبية بأن القابلات اليهوديات أفضل من الجزائريات، وأكّدت أنهن لا يختلفن عن العربيات في المستوى والخبرة".[40]

وأما عن تدريس الرياضيات فيبدو أن أغلب المصادر التي أشارت إليها رأت أنها علوم نظرية لم يكن الجزائريون على دراية كبيرة بها، فيذكر شاو: "أن الجزائريين لا يعرفون الكثير عن فروع الرياضيات... فحتى الأرباع والإسطرلاب والأدوات الرياضية التي ورثوها عن أجدادهم ينظرون إليها كإنجازات رائعة فقط بدلا من استخدامها في حياتهم اليومية...غير أنني لاحظت أن تقويماتهم تبدو مفيدة، ولديّ منها واحدة تعود إلى أسلافهم، حيث يتم حساب موضع الشمس والقوس النصفي النهاري والليلي وطول الشفق من أجل الحصول على مواقيت دقيقة للصلاة طوال أيّام الشهر، وهي موضوعة في أعمدة جميلة"[41] ، ويواصل: "إن جهل الجزائريين بعلم الحساب والجبر كبير جدا؛ رغم أن أجدادهم قد اخترعوا هذا العلم، كما قدموا إلى أوربا حروف الجبر، ومع ذلك لا يزال التجار يجرون عمليات حسابية لمبالغ ضخمة من الأموال بأيديهم وباستخدام الذاكرة فقط... كما أن الجزائريين يعتقدون أن تجميع الأرقام وتكوينها بطرق مختلفة يمكن أن يساعدهم في كشف الكثير من الأسرار وتحفيز السحر وحتى علاج

---

[39] شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، منشورات وزارة الثقافة، 2004، ص66-68.

[40] شونبيرغ، مصدر سابق، ص77.

[41] Shaw, op.cit, p363.

المسحورين" ، ويورد شاو في تأليفه تميمة تسمى "حرز المبارك" كان يستخدمها الجزائريون في الحصول على حظوة الأمراء واستلهام الشجاعة وتخويف العدو والاحتماء بها من الأمراض وكل الأشياء الضارّة والمؤذية[42].

وعند الحديث عن الأدوات الموسيقية، فإن أغلب المصادر تشير إلى أن معظم هذه الأدوات التي كان يستخدما الجزائريون هي لأجل الحاجة العسكرية، في حين يؤكد آخرون "أن الجزائريين يجيدون العزف على آلات موسيقية متنوعة، لكنهم لا يكتبون الكلمات التي يؤلفونها".[43]

3- المؤسسات الثقافية:

انتشرت المساجد بشكل كبير في مدينة الجزائر، حيث يذكر فونتير دي بارادي أن "الجامع الكبير" كان أكبر المساجد الموجودة في الجزائر العاصمة، ويتبع للطائفة المالكية حيث يشتغل فيه مفتيان وقاضيان، يلتقي كلّهم يوم الخميس من أجل البتّ في قضايا العامة التي لا تستطيع المحكمة إصدار أحكام فيها، بالإضافة إلى تقسيم المواريث ويسمى هذا الاجتماع "مجلس الشريف"... وأما يوم الثلاثاء فهو يوم عطلة يقضيه القضاة والمفتين في منازلهم الريفية".[44]

وقد بلغت المساجد من القداسة ما جعلها مركزا "يفرّ إليه حتى المجرمين أو أولئك الملاحقون من قبل العدالة الجزائرية، فلا ينالهم أي عقاب ما داموا داخله، خاصّة إذا كان المسجد تابعا لأحد الأولياء الصالحين -الزاوية-، كما يمكن للأسير المسيحي أن ينجو من العقاب إذ هو فرّ إلى أحدها قبل أن يقبض عليه على أن يوثق قدمه بسلسلة نهايتها عبارة عن كرة حديديّة، أما في حال قبض على أحد اليهود داخلها فإنّه يحرق أو يصلب حيّا"[45]،

---

[42] Shaw, op.cit, p363.

[43] Ibid, p367.

[44]Paradis Venture De, op.cit, p157.

[45]Foss, John, A journal, of the captivity and sufferings of John Foss; several years a prisoner at Algiers: together with some account ... , 1800, p34.

غير أن الكثير من الرحالة والكتاب الأوربيّين أكّدوا أنّ أهل الذمّة لم يكن يسمح لهم بدخول المساجد أصلا، سواء كانوا مسيحيين أو يهودا، ويذكر في هذا الصدد بلايفر " أن قسيسا دخل إلى أحد مساجد العاصمة وهاجم الديانة المحمدية؛ فقامت السلطات بالإمساك به وأحراقه حيّا"[46]، ويذهب فونتير دو بارادي إلى أن "اليهودي أو المسيحي الذي يقع في مشكل مع أحد المسلمين؛ يحاكم في فناء مجاور للجامع ذلك أنه لا يسمح لهم بالولوج أصلا إلى المسجد"[47]، في حين تؤكد المعاهدات الجزائرية الغربية إلى أن الأسرى والجالية الأوربية في حال وقوع شجار بينها وبين تركي أو جزائري فإن أفرادها يحاكمون وفق القانون التركي[48] أي على الطريقة الحنفية.

لقد بنيت المساجد الجزائرية بطريقة جيّدة وفخمة جعلها تعادل في جماليتها وضخامتها المباني الرئيسية الموجودة في المدن الجزائرية الكبرى حيث يمكن لعمرانها أن يوازي قصر الداي والمستشفى الخاص بالأسرى، ويؤكد جون فوس: "أن مساجد مدينة الجزائر مبنية بشكل رائع".[49] ويخبرنا دافيس عن وضعية المساجد من الداخل قائلا: "إن المساجد التركية *Church* جميلة جدّا من الداخل، حيث يوجد بها مئات الشموع الموقدة، بالإضافة إلى أن أرضيتها مغطّاة بالحصائر والمنسوجات، ولا يوجد فيها أي صور أو مقاعد للحاضرين، حيث يقوم الجزائريون بالصلاة وهم يمسكون بسبحة في أيديهم"[50]، أما عن عددها فقد اختلفت المصادر في الإحصاءات وذلك على حسب كلّ عصر وفترة، حيث يذكر فونتير دي بارادي الذي زار

---

[46]Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p.90.

[47]Paradis Venture De, op.cit, p157.

[48] Article of Peace and Commerce between the most serene mighty Prince Charles 2, by the grace of God King of Great Britain, France and Ireland, defender of the faith, and the most illustrious Lords, The Bashaw, Dey, Aga, and Governours of the famous City and Kingdom of Algiers in Barbary: concluded by Arthur Herbert, Esquire, Admiral of his Majesties Fleet in The Mediterranean seas: on the Tenth of April, Old Stile, 1682, Printed by John Bill, Henry Hills, Thomas Newcomb, London, 1682.

[49]John Foss, op.cit, p43.

[50] Davies, op.cit, p13.

الجزائر العاصمة بين سنتي 1788-1790م "أن الجزائر العاصمة بها اثنا عشر جامعا كبيرا والعديد من المساجد الصغيرة"[51]، أما جون فوس الذي كان أسيرا بالمدينة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1793-1795م، فيذكر "أن عددها قد بلغ خمسة وستين مسجدا"[52]، في حين يذهب دوفو "إلى أن عدد المساجد في الجزائر العاصمة قد بلغ إثنا عشر مسجدا كبيرا ومائة وتسعة مساجد صغيرة سنة 1830م ، وتناقص عددها سنة 1862م ليصبح تسعة مساجد كبرى وتسعة عشر مسجدا صغيرا".[53]

وأما فيما يخصّ التنظيم العام لهذه المساجد، فإن من عادات الجزائريين "رفع العلم الأبيض وقت صلاة الظهر، ثم العلم الأخضر إيذانا بدخول وقت صلاة العصر، ويسمّونه بانتيرا نيفا أي ساعة نشر علم السفينة، وفي المساء فانتير أباسا أي ساعة طيّ العلم".[54]

وفي المقابل تعتبر الزاوية أقدس حتى من المسجد؛ خاصة بالنسبة لأتباع الطائفة الصوفية، ولما كان العثمانيون قد أسّسوا إمبراطوريتهم على الطريقة الشاذلية الصوفية؛ فإنّهم عاملوا الطرق الصوفية وزواياهم بعين الاحترام والريبة في نفس الوقت، "فجعلوا الزاوية مكانا مقدّسا هو آمن من دخلها"، ويذكر جون فوس بقوله: "يفّر المجرم الجزائري إلى مسجد المرابط -الزاوية-، حيث يلتقي هناك المفتي فيعلمه عن وضعيته القانونية، ليقوم الأخير بإعلام الداي عن وجود مجرم في زاويته، فيرسل الداي بدوره مسبحة إلى المفتي كرمزية عن العفو وهكذا يطلق سراح المجرم، وعلى الرغم من أن الأخير يمكنه أن يخرج من المسجد طواعية؛ إلا أنّ خروجه دون وصول المسبحة يعني أنه معرّض للعقوبة".[55]

---

[51]Paradis Venture De, op.cit, p157.

[52]Foss John, op.cit, p45.

[53]DevoulxA, Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870, p3.

[54]هابنسترايت، مصدر سابق، ص38.

[55]Foss John, op.cit, p47.

وقدّمت لنا الإحصاءات انتشار عدد هائل من الزوايا عبر جميع ربوع الجزائر خلال العهد العثماني، فأحصى دوفو "إثنا عشر زاوية وإثنان وثلاثون ضريحا بالجزائر العاصمة سنة 1830م، غير أن هذا الرقم قد تناقص بشكل جليّ سنة 1862م فأصبح عددها خمسة زوايا وخمسة عشر ضريحا".[56]

وفي الأخير فإن ما نستشفه من هذه المحاضرة هو **أن** ظهور طبقة من الحكام الجهلة الأميّين أدى إلى إهمال الجانب الاقتصادي والعلمي حيث انشغل أغلبهم بجمع المال معتمدين على العائدات البحرية والجبائية، في حين أوكلت مهمة التجارة الخارجية لليهود والفرنسيين حتى عاثوا في البلد فسادا.

لقد كان الكثير من الحكام أعداء للعلماء "وقد بلغ ببعضهم الحمق إلى الاقدام على قتل الكثير منهم"، وفي مقابل هذا الاهمال برز العلماء كفئة موازية للسلطات الحاكمة سدّت الفراغ الحاصل، حيث لعب العديد منهم أدوارا مهمة في مجالات متعددة مثل التعليم والقضاء على الطريقة المالكية وحلّ الخلافات بين القبائل المتناحرة وغيرها من القضايا التي أوكلت لهم؛ كما تمكن العلماء من الحفاظ على المرجعية الدينية الإسلامية للأمة الجزائرية، واستمروا في الدفاع عن هذه الهوية خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية.

غير أن هذه العداوة لم تمنع من ظهور بعض الحكام الذين اهتموا بالعلماء وراعوا شؤونهم، مثل الداي محمد بكداش وعثمان باي الكبير محرر وهران سنة 1792م.

---

[56]Devoulx, op.cit, p03.